قصتان

هشام البستاني: قاصّ وكاتب من الأردن. صدر له: **عن الحب والموت** (بيروت، ٢٠٠٨)، **الفوضى الرتيبة للوجود** (بيروت، ٢٠١٠)، وتصدر مجموعته الثالثة قريبًا عن دار الآداب.

Skybar - 1

كنجومِ ليلةٍ حالكةِ الظُّلمة تمرُّ أمامها أسرابُ الغيوم، هكذا كانت الأجسادُ تتلوّى في الملهى السماويِّ مُقطّعةً في تثنّيها الأضواءَ.

المعلّمُ الكبيرُ أرسل أعوانَه من النُّدُلِ المُجَنَّحين بالكؤوس. السوائل الحمراءُ والزرقاءُ والصفراءُ تهيجُ إذ تنزلُ من الحَلْقِ إلى المعدة، مُحيلةً شاربها كائنًا شفّافًا أثيريّاً خفيفًا - خفيفًا - يطيرُ ويصعدُ ويتلاشى.

على الأرض، تتصاعد الانفجاراتُ ويتكاثرُ الموتى. من يريدُ أن يسكَرَ على أرضٍ تنفجر؟ فكان أن صعد الجميعُ إلى السماء.

❖❖❖

كان اسمهُ في بطاقة الأحوال المدنيّة: محمّد الإبراهيم، لكنْ، لأنّه لم يترك امرأةً محرومةً في المدينة إلاّ ضاجعها، كانوا يسمّونه القِدّيس. عندما يراه المنبوذون المتكتّلونَ بأمرِ الحارس الضخم على أبواب السماء، كانوا يطلبون شفاعته عند المعلّم الكبير، فيستجيب.

يجلس القدّيسُ وتنفرد أمامه طاولةٌ تنتهي بجميلةٍ وُلدتْ أوائل أيلول من عام ١٩٨٢. لذلك نسي الجميع أنّها ماري نجّار، والتصق بها لقبُ العذراء. هي طبعًا لم تكن اسمًا على مُسمًّى، لكنّها المصادفةُ تلعب ألعابها الساخرة معنا ونحن لا نفهم قطّ.

بحركةٍ انسيابيّةٍ خبيرةٍ تُشبِه القوسَ التي يصنعُها ذراعُ لاعبِ البولنغ ولكنْ بمستوًى أُفقيّ، دفع القدّيسُ كأسًا مربّعةً قصيرةً سارت على السطح المصقولِ للبارِ حتى توقّفتْ أمامها.

«لنصنعْ معجزةً،» همسَ من بعيد. فقرأت شفتيهِ وقلبت الكأسَ في جوفها.

واحد...

اثنان...

ثلاثة...

ثم صارا يُحلّقان في سماءِ المدينة. من أعلى تبدو البناياتُ والشوارعُ الممتلئةُ بالسيّاراتِ كلوحةِ «برودواي بوجي - ووجي»: أضواءً متقطّعةً على صفحةٍ مستوية. بين حينٍ وآخرَ تومضُ بُقعةٌ ما بضوءٍ ساطعٍ يتوسّع فجأةً ثم ينقطع. بعدها يسمعان صوتًا عظيمًا مُرتَجّاً، وتدفعُهما يدُ الهواء الساخنةُ القادمةُ من أسفل.

لقد غادرا البارَ السماويّ، ونفوذُ المعلّمِ الكبيرِ لا يمتدُّ إلى خارج المساحة المحاطة بالأضواء الملوّنة.

«فلنذهبْ باتّجاه أُمّنا الأولى،» قال لها ومالا باتّجاه البحر. اللوحةُ هنا لمحمّد نصر الله - أرضٌ أخرى: مساحاتٌ شاسعةٌ من الامتداد المنسجم. ولكنْ مهلاً! هناكَ شائبةٌ ما على السطح، هيكلٌ نحيلٌ وطويلٌ يدفع بخراطيمَ منتصبةٍ في الهواء، و.. (يهزّ رأسهُ ويقول:

«حتى هنا..») تومضُ من أطرافها أضواءٌ ساطعةٌ تتوسّع فجأةً ثم تنقطع، فأصواتٌ عظيمةٌ مُرتجّةٌ، وأخيرًا: يدُ الهواء الساخنةُ القادمةُ من أسفل.

❖ ❖ ❖

هذه المدينة ليست لنا. مدينةٌ يسير الرعدُ والبرقُ في شوارعها ليست لنا. لهذا يأتون عندي. يصعدون سلالم السماء في معراجهم السريع، ويدقّون بابي. كأسٌ ملوّنةٌ واحدةٌ كفيلةٌ بطيرانهم ثم يصيرون مواطنين في جنّتي ذاتِ الإضاءة الخافتة.

أنا المعلّم الكبير. لا انفجارات في سمائي، وعندما يصعدون، يذوبون كلّهم في سوائلي الملوّنة متحوّلين إلى حساءٍ واحد.

في الصباح أطردُهم من نعيمي ليسبحوا في الخطيئة: لا نعيم بلا خطيئة. ولهذا أرميهم في الشارع كلّ صباح.

أطردُهم؟ أرميهم؟ ها أنا أسبح بجنون العَظَمَةِ مرّةً أخرى. هذه المدينةُ ليست لنا: عندما يستيقظُ فيها الصباحُ وتتحوّلُ سمائي إلى كراسٍ وطاولات، ويتحوّلُ نُدُلي المجنَّحون إلى رجالٍ ونساء، وتتحوّلُ أضوائي المتقطّعةُ إلى علبٍ سوداءَ بفتحاتٍ زجاجيّة، ينزل الجميعُ بسرعة. وفي الشارع، يرفع كلُّ واحدٍ منهم مسدّسه في وجه الآخر، وأغرقُ في البكاء.

❖ ❖ ❖

عندما حطَّ القدّيسُ والعذراءُ على كُرسيّين متجاورين، كان الصباح يوشك أن ينبلج. حولهم كانت عيونٌ مُحمرّةٌ وأجسادٌ مجعلكةٌ وكؤوسٌ فارغة.

«ثمّةَ ما هو أعلى من سمائي،» صاحَ المعلّمُ الكبير إذ سمع صفيرًا حادّاً قادمًا من الأعلى، وشاهدَ فوقه (في المساحةِ الشاسعةِ من الامتدادِ المُنسجم) شائبة: هيكلاً نحيلاً وطويلاً يتبرّزُ كتلاً أسطوانيّةً صارت إحداها

تكبُرُ

وتكبُرُ

وتكبُرُ

وتكبُرُ

إلى أن صارت السّماءُ كالعهنِ المنفوشِ. وعندها لم يعُد المعلّمُ الكبير، ولا القدّيسُ، ولا العذراءُ، ولا المجنّحون. لم يبقَ أحدٌ ليقولَ لنا إنْ وَمضَ ضوءٌ ساطعٌ توسّعَ فجأةً ثم انقَطَع، وإنْ سُمِعَ صوتٌ عظيمٌ مُرتجّ، لكني أجزم أن يدًا من الهواء الساخن تصفعك الآن.

هوامش

Skybar. بار وملهى على السطح المكشوف لفندق بالم بيتش في بيروت. لارتفاعه عن الأرض، هرب اليه الناسُ ليسهروا فيه اتقاء من التفجيرات التي احتاحت المدينة بعد اعتيال رفيق الحريري.

برودواي بوجي–ووجي لوحة للفنّان الهولنديّ بيت موندريان، أحدِ مؤسّسي مدرسة التشكيليّة الحديدة.

محمّد نصرالله: أحد أبرز الفنّانين التشكيليين في الأردن. وُلد في مخيّم الوحدات للاجئين الفلسطينيين عام ١٩٦٣، واستطاع ابتكار أسلوب مميّز في الرسم لا يشبه غيره. «أرضٌ أخرى» هو اسم واحد من متتاريعه الفنيّة.

٢ ـ لعبة الحواسّ

١

السُّكْر صَحْوٌ حادّ.

[صَحْوٌ أوّل]

تعرفُ أنّكَ تتقدّم في العمر حين تصير تبحث في كومةِ قشِّ الناسِ عن إبرة الأصدقاء.

[صَحْوٌ ثانٍ]

تعرفُ أنّكَ على تخوم الحقيقة حين يمتلئ الأفقُ ببشرٍ كُثرٍ تقول عنهم، من دون أن ترمش عينُك، «هؤلاء أعدائي.»

[صَحْوٌ ثالث]

أولئك الذين يملكون عينين وأنفًا وفمًا على الجهة الأخرى من رؤوسهم سيتعثّرون دائمًا بظلالهم. وكيفما سقطوا، فسيسقطون على وجوههم.

❖ ❖ ❖

عندما استيقظ إثر ليلةٍ عنيفةٍ من الصَّحو، لم يكن معه في الغرفة سوى صداعٍ ثقيلٍ، وزجاجةٍ فارغة.

٢

البُعدُ يشحذ الحواسّ.

[كتب لها بعد أن غابت:]

أجملُ النساء امرأةٌ عن بُعْد... إلاّكِ.

جمالكِ المندلق على البار ظلَّ عالقًا بشفتيَّ.

[كتب لها بعد أن غابت:]

الحريق لا يرتوي إلاّ عندما يأتي على كلّ ما هو قابلٌ للاحتراق.

أنا نارُكِ، وأنتِ هشيمي الذي لا ينتهي.

[كتب لها بعد أن غابت:]

أحسد ذاك المكانَ لأنّه يحيطُ بكِ كراحةِ يد. أمّا أنفاسكِ، آهٍ من أنفاسكِ، فها هي تضيعُ على الأدراجِ بدلاً من سريري.

[كتب لها بعد أن غابت:]

لم أعُد أناديكِ باسمكِ. أناديكِ بمعناكِ.

❖❖❖

عندما لم يستطع الاحتمالَ أكثر، حَشَرَ نفسه في أسلاك الهاتف، وظهر في أحلامها.

٣

تُغلقُ عينيها لتنام، فينفجرُ كابوسٌ جديد.

٤

حالما فَتَحَ فمهُ ليصرخَ، قتلهُ الصمت.

٥

لماذا لم يَسمع رُعبَ النملةِ، فهَرَسَها بقدمه؟

٦

«العيونُ مغلقةٌ على اتّساعها،» قال ستانلي كوبريك ومات، ثمّ أخذ يفتحُ نوافذ في الرؤوس.

٧

ما إنْ لامس القلم حتى تحوّل إلى ساطور، فامتلأت الورقةُ ببقعٍ حمراء.

٨

عندما مدّ لسانهُ ليتذوّقها، قضمته، فصارت خرساءَ وصار شاعرًا.

٩

في عيد الحبّ، تُقتل الأزهارُ لتذبل جثّتها أو تجفّف وسط الدفاتر.

وحدهُ تاجرُ الموت الذي لا يشمّ، يخرجُ مُنتشيًا بجيوبه المَلأى.

١٠

سيارةُ توزيعِ الغازِ تصدحُ بالموسيقى لتجذب الزبائن، ولتغطّي على صوتِ احتضارِ الأرضِ المحشورِ في الأسطوانات.

١١

ها هيَ تَمُرُّ إلى جانبه، مُقابله. لا، ليست هي بالتحديد. كلُّ النساء. كلُّـ «ـهنَّ.» يلوي رقبته، يُفنجِرُ عينيه، يتأملّها بسرعةٍ أو ببطءٍ بحسب سرعته/سرعتها. سيحتفظ بصورهنّ في خياله، وآخرَ الليل يضاجع الصّور، يرمي نفسه في بركةٍ من النهود والأفخاذ والفروج، يسبحُ ويسبحُ حتى يغرقَ في مَنيِه. وفي الصباح، يضع نظّارته السوداء، ويحمل عصاه الطويلة البيضاء، ويخرج للصيد مرّةً أُخرى.

١٢

البصر يَصطدم بالعمارات العالية وأضواءِ الشاشات الكبيرة. الشمّ تُشوّشه رائحةُ العوادم والعطور المعلّبة. اللمس تبخّر بجلافةِ الأنانيّة. التذوّق ساحَ بالطّعوم المُصنّعة. السمع انثقب بضجيجِ عجلاتٍ تدورُ وتدورُ ولا تتوقّف.

الحواسُّ الخمسُ اجتمعتْ وقرّرتْ أن تنتحر جماعيّاً.

فبعد كلّ هذه التكنولوجيا، أصبح الغيابُ كذبة، والخيالُ كذبة، والساحةُ اللامتناهيةُ التي ركض فيها الدماغُ مرّةً مُسَيّجةً بأسوارٍ عاليةٍ من أسلاكٍ ومعالجاتٍ صغيرةٍ فائقةِ السرعة.

الحواسُّ الخمسُ اجتمعتْ وقرّرت أن تنتحر جماعيّاً. ولهذا يركضُ الإنسانُ كلّ يومٍ في عالمٍ من الخواء.

هوامش

❖ **أحمل النساء امرأة عن بعد:** العبارة لإبراهيم الكوني.

❖ **ستانلي كوبريك** أحد أهمّ المخرجين الأمريكيين، مات قبل أربعة أشهر من تاريخ عرض آخر أفلامه Eyes Wide Shut.